محاضرة 01
تطور نشاط الحركة الوطنية في تونس
1919. 1956

ترتب عن سياسة الاحتلال والاستغلال ردود فعل شعبية عميقة، استغلتها النخبة التونسية في بلورة مواقف سياسية معادية للسياسة الفرنسية، وقد ظهرت الحركة الوطنية التونسية بشكل منتظم في بداية القرن العشرين، ولكنها توطدت بعد الحرب العالمية الأولى، واشتد ساعدها خلال الثلاثينيات، وتوجت نضالها بتحقيق استقلال تونس، وسوف نتتبع مسيرة النضال التونسي مرحلة بمرحلة، ونوضح أهم منعطفاتها.

أولا : تبلور الحركة الوطنية التونسية 1919. 1934

لقد استفادت النخبة السياسية التونسية من تجربة نشاطها الممتدة إلى بداية فرض الحماية وحركة "الشبان التونسيين"، ومن انعكاسات الحرب العالمية الأولى وظروف فرنسا الداخلية، فقد كان نشاطها امتدادا لحركة النضال الوطني غير المهيكلة، واستفادت من نتائج دولية أفرزتها الحرب، ومنها تراجع قوة الدولة الاستعمارية الفرنسية وظهور الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا كقوى دولية جديدة، وشجع انتشار المبادئ والأفكار التحررية (مبادئ ولسن) الزعامات التونسية على توحيد مواقفها والمطالبة بالحقوق الدستورية لتونس،

وقد عقدت هذه الزعامات عدة اجتماعات بتونس في ربيع عام 1919، أكدت على ضرورة تنظيم وتوحيد العمل الوطني لتحقيق استقلال تونس، وأعلنت عن تأسيس حركة منظمة، قرر زعمائها في مارس 1919 إرسال مذكرة إلى الرئيس الأمريكي ولسن، يلتمسون فيها تطبيق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها على تونس، كما ربطوا اتصالات مع القوى اليسارية الفرنسية لشرح القضية التونسية وكسب موقفهم لتفهم مطالبهم، وفي هذا السياق أرسل احمد السقا إلى باريس ممثلا للحزب والتحق به عبدالعزيز الثعالبي، وقد نهضا بنشاط حثيث توجه الثعالبي بإصدار كتاب "تونس الشهيدة".

وبادر مجموعة من الشبان في مارس 1920 إلى تأسيس حزب جديد سمي "الحزب الحر الدستوري"، وكان من قادته الأساسيين عبد العزيز الثعالبي، وتضمن برنامج الحزب

المطالبة باستعادة الحقوق السياسية لتونس، وذلك بتطبيق دستور 1861 واستعادة تونس لسيادتها وتشكيل حكومة وطنية والمساواة في الحقوق بين الفرنسيين والتونسيين، وا ٍشاعة الديمقراطية والحريات العامة، ثم دعم الحزب برنامجه بمطالب جديدة وهي إنشاء جيش وطني واستعادة الأراضي التي نهبت وفتح جميع الوظائف الإدارية أمام التونسيين، وقد اكتسب الحزب إلى جانبه باي تونس محمد الناصر الذي تبنى مطالبه([1]).

وتقدم الحزب بمطالبه إلى الحكومة الفرنسية ملحا عليها بإنشاء مجلس تشريعي وتشكيل حكومة وتجسيد المساواة وا ٍطلاق حرية الصحافة والاجتماعات، وأمام تزايد مطالب الحزب وتنامي المؤازرة الجماهيرية له اضطرت السلطات الفرنسية للتجاوب مع بعض المطالب، وذلك قصد امتصاص غضب التونسيين، حيث صدر في جويلية عام 1922 مرسوم الإصلاحات المتضمن تأسيس المجلس الكبير، وهو هيئة برلمانية استشارية تقدم تقارير عن الميزانية والمسائل الاقتصادية ولا يحق لها مناقشة القضايا السياسية، ويتشكل من قسمين أحدهما تونسي يتكون من 41 عضو والآخر فرنسي يتكون من 56 عضو بالإضافة إلى تأسيس مجالس محلية استشارية، ولان هذه الإصلاحات كانت شكلية وتستجيب لكامل المطالب الوطنية فقد رفضها حزب الدستور، وتعرض بسبب ذلك لاضطهاد السلطة الفرنسية، كما حاولت هذه السلطة إثارة الانقسام في صفوفه عن طريق سياستها المخادعة، فانفصل حسن قلاتي وفرحات بن عياد عن الحزب، وأمام اشتداد المضايقات اضطر الثعالبي للجوء إلى خارج الوطن وفتر بذلك نشاط الحزب لسنوات عديدة، وازدادت خلالها وطأة السياسة الفرنسية شدة واضطهادا، حيث فرضت في عام 1923 قانون التجنيس الذي لقي معارضة الدستوريين، وضايقت النشاط النقابي للعمال التونسيين، واتبعت الأساليب القمعية في التصدي للدستوريين([2]).

ثانيا: نشاط الحركة الوطنية خلال الثلاثينيات

في بداية الثلاثينيات بدأ نشاط الحركة الوطنية يتجذر في تونس، وعرف الحزب الدستوري الحر توسعا واستفاقة في نشاطه، وذلك بتأثير التطورات الدولية (الأزمة الاقتصادية،

---

[1] انظر علي المحجوبي: جذور الحركة الوطنية التونسية، تر عبدالحميد الشابي، منشورات بيت الحكمة، تونس، ط1، 1999، ص ص 216. 236

[2] مجموعة باحثين: موجز تاريخ الحركة الوطنية التونسية، مرجع سابق، ص . ص 69. 74

ظهور القوى الفاشستية...الخ) والأوضاع الداخلية لتونس (المؤتمر الافخارستي، أحداث التجنيس...الخ)، وبموازاة ذلك بدأت تظهر بعض التناقضات بين أقطاب الحزب، حيث عارض الشباب المتعلم بالثقافة الفرنسية والمتأثر بالمبادئ الاجتماعية والسياسية الحديثة زعماء الحزب المحافظين وطالب بإعادة تنظيم الحزب تنظيما جماهيريا، وتمكنت المعارضة من بسط نفوذها على فئات واسعة من الفلاحين والعمال. ونتيجة لاشتداد الخلافات بين جناحي الحزب عام 1933 دعا الجناح المعارض إلى مؤتمر طارئ في قصر هلال في 2 مارس 1934، وأعاد في ظل غياب الجناح المحافظ تنظيم الحزب جذريا، وانتخبت قيادة جديدة أعطت للحزب تسمية جديدة "الحزب الدستوري الجديد"، وكان من قادته الأساسيين محمود الماطري الذي تولى رئاسة الحزب والمحامي لحبيب بورقيبة الذي تولى أمانة الحزب العامة، وأما جناح الحزب القديم فقد أعلن طرده للمنشقين من الحزب، وبدأت قاعدته الشعبية في التراجع نتيجة استقطابها من قبل الحزب الدستوري الجديد الذي اكتسح بنهجه الجديد الساحة لقيادة نضال الشعب التونسي.

وعلى الرغم من أن برنامج الحزب الجديد كان أكثر اعتدالا وميلا للتفاهم مع فرنسا وتمشيا مع الحياة الغربية الحديثة إلا أن توسعه وانتشار مبادئه بين الجماهير التونسية أزعج السلطات الفرنسية التي أصدرت في 6 سبتمبر 1934 أمرا باعتقال زعمائه: بورقيبة والماطري والتضييق على الحزب ومنظماته، وعلى الحزب الشيوعي التونسي، وكانت ردة الشارع التونسي عنيفة، حيث حرك الحزب الدستوري الجديد عدة مظاهرات ونظم عدة إضرابات، وهو ما ادخل البلاد في مرحلة الاضطراب التي تنفرج إلى بتغيير المقيم العام "بيرتون" في مارس عام 1936([3]) .

وبصعود الجبهة الشعبية للسلطة في فرنسا وا إصدارها للعفو العام وقانون الجمعيات في أوت 1936 عرفت الحركة الوطنية متنفسا جديدا، حيث كثفت من جهودها التنظيمية وشددت من لهجة مطالبها، وعرف الحزب الدستوري الجديد توسعا عريضا، إذ أصبح يعد في سنة 1937 أربعمائة شعبة يتراوح مجموع منخرطيها ما بين أربعين ألف وسبعين ألف منخرط([4])،

---

[3] مجموعة باحثين: المرجع نفسه، ص 92

[4] Kraiem mostapha Mouvement national et front populaire la tunisie des années trente ,université de tunis1, ISHMN ,1996 ,PP 101 a 302

وأصبح بحق القوة السياسية الرئيسية في البلاد والممثل الوحيد للحركة الوطنية رغم عودة الثعالبي خلال 1937 عام للبلاد وتعضيده لجانب الحزب الدستوري القديم، وهو ما تفطنت له الإدارة الفرنسية فحاولت عرقلة نشاطه من جديد، وواجه الحزب الدستوري الجديد سياسة التضييق بالتصعيد والمواجهة، فردا على المضايقات دعا الحزب إلى مظاهرة يوم الثامن افريل 1938، وفي اليوم الموالي حدثت صدامات بين الجندرمة والمناضلين قرب قصر العدالة أفضت إلى مقتل عشرين مناضلا، وهو أمر استغلته السلطات الفرنسية لفرض الحصار وحجر الصحف واعتقال القادة السياسيين، ودخل الحزب بعدها مرحلة النضال السري والاستعداد لتنظيم خلايا المقاومة المسلحة.

ثالثا: النضال الوطني خلال الحرب العالمية الثانية.

أثرت الحرب العالمية الثانية بظروفها ومتغيراتها العميقة على تونس المستعمرة، حيث أقحم التونسيون في هذه الحرب، وعايشو ا أثارها السياسية والاقتصادية، ومن الأحداث المأثرة على النضال التونسي السري انهزام فرنسا في بداية الحرب وانقسامها بين الفيشيين والديغوليين، وكل هذا شجع الحزب الدستوري الجديد على مضاعفة نشاطه السري والترويج أكثر لمطلب الاستقلال، وفي هذا الإطار بادرت بعض العناصر الثورية للاتصال بالألمان طالبين دعمهم لمطلب استقلال بلادهم، ومن الأحداث الهامة التي أنعشت الحركة الوطنية بتونس خلال الحرب ارتقاء المنصف باي المتعاطف مع الحركة الدستورية إلى العرش، ونزول حملة الحلفاء بتونس (نوفمبر 1942. ماي 1943)، وهو ما جعل الوعي الوطني ينتشر بقوة والحركة الوطنية تتمسك بمبدأ الاستقلال، حيث عبرت عن رفضها لتصريح برازافيل (جانفي 1944)، وشكلت لجنة وطنية يوم 30 أكتوبر ضمت ستين عضوا من مختلف الأطياف السياسية، تحولت إلى "جبهة وطنية"، عقدت عدة اجتماعات وصاغت مطالب تطالب فيها بمنح البلاد استقلالها الداخلي وا ٍقامة نظام ملكي دستوري([5])، ومن اجل دعاية أوسع للقضية التونسية في المشرق العربي انتقل بورقيبة إلى مصر، في حين سعى الديوان السياسي للحزب

[5] Kraiem mostapha la classe ouvriere tunisienne et la lutte de liberation nationale 1939 – 1952, tunis, ISHMN ,1980 ,PP200

الدستوري الجديد بإشراف صالح ابن يوسف إلى تكوين جبهة وطنية مضادة للاستعمار، أيدت الحزب في مطالبه الاستقلالية التي صاغها في مؤتمر ليلة القدر(23 أوت 1946)([6]).

رابعا: نشاط الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية

بعد خيبة الأمل التي منيت بها الحركة الوطنية غداة نهاية الحرب العالمية الثانية بسبب الموقف الفرنسي المتشدد اتجاه قرارات الحزب 1946 الاستقلالية تواصل النضال الوطني بحزم وقوة، وتضافر الجهد الداخلي مع جهود الوفود الخارجية، حيث قام زعيم الحزب بورقيبة بنشاط واسع في إطار مكتب المغرب العربي لكسب مؤازرة دول الجامعة العربية للقضية التونسية لكنه وجد حرب فلسطين تشغل هذه الدول ففضل العودة لبلاده ومواصلة النضال السياسي بالتفاهم مع السلطات الفرنسية لتعجيل حل القضية التونسية([7])، وتخلى الحزب الدستوري الحر في سبتمبر 1949 عن مطلب الاستقلال المباشر وطرح بدله برنامج الاستقلال الداخلي صاغ بورقيبة بنوده وباشر تطبيقه لإجراء مفاوضات مع سلطات الحماية التي قبلت التفاوض، وتم تشكيل وزارة تونسية اشتركت فيها عناصر من الدستوريين ونقلت الوزارة مطالبها إلى باريس([8]) لكن السلطات الفرنسية أعلنت رفضها للمطالب الوطنية في مذكرة بعثت بها إلى الحكومة التونسية في ديسمبر 1951، وأدت تنحية حكومة شنيق الوطنية في بداية عام 1952 الى إثارة استياء عميق في تونس تمثل في حركة الاحتجاج الواسعة والإضرابات العمالية، وقد ردت سلطات الحماية بقمع الوطنيين بالقوة واعتقال قادة الحزب الدستوري وأعلنت الرقابة على الصحف والتجمعات ونصبت حكومة جديدة موالية لها، وانعقد مؤتمر سري للحزب الدستوري الحر في بداية عام 1952 أعلن من خلاله عن سقوط الحماية والتعبئة للكفاح المسلح([9]).

خامسا: اندلاع المقاومة المسلحة واستقلال تونس 1952. 1956

لقد أدى اضطراب الوضع السياسي واغتيال فرحات حشاد في نهاية عام 1952 الى اندلاع حركة المقاومة، وعلى الرغم من الإمكانيات الضئيلة إلا أن المقاومة المسلحة التي

---

[6] للتفصيل اكثر انظر محمد لطفي الشابيي : الحركة الوطنية التونسية ومطلب الاستقلال، اعمال الندوة الدولية الثالثة عشر، استقلال تونس ومسيرة التحرر من الاستعمار، ماي 2004، منشورات م ع ت ح و ، جامعة منوبة، تونس، 2010، ص 23

[7] انظر جلال يحي : المرجع السابق، ص . ص 265. 266.

[8] انظر مجموعة مؤلفين: تاريخ الاقطار العربية المعاصر، ج2، دار التقدم، موسكو، 1976، ص252

[9] علي البلهوان: تونس الثائرة، مصدر سابق، ص 417

شملت معظم المناطق الجنوبية والمدن الساحلية استطاعت القيام بحملات عسكرية واسعة ضد الفرنسيين([10])، وإذا كانت مقاومة الجنوب من تنظيم خلايا الحزب الدستوري الحر فإن مقاومة الساحل التي كانت أشد عنفا كانت عفوية وبدأت سنة 1954 معتمدة على المزارعين و العمال وأطرهم مقاومون كونتهم "لجنة تحرير المغرب العربي" ثم بادر الحزب لاستغلال الحركة المقاومة والسيطرة عليها ([11]).

وتميزت مقاومة الساحل بالعنف وحسن التنظيم، وقد كانت المظاهرات والإضرابات تزيد من تدهور الوضع بتونس ونظرا لتأججها وللظروف الدولية التي كانت تمر بها فرنسا بعد هزيمة "بيان ديان فو" بادر "منديس فرانس" باجراء اتصالات بقيادة الحزب الدستوري الحر قصد حل الأزمة سلميا، وتم التوافق على حل من ثلاث نقاط، الاعتراف باستقلال تونس، وتشكيل حكومة انتقالية، والتفاوض من اجل طبيعة الاستقلال، وقد قدم "منديس" إلى تونس وصرح في جويلية 1954 بمبدأ استقلال تونس الداخلي، وبعد اندلاع ثورة الجزائر في فاتح نوفمبر 1954 سرع في مفاوضاته الهادفة الى تطبيق مبدأ الاستقلال الذاتي بتونس ونزع أسلحة المقاومين، ومهما تكن نوايا فرنسا في منح هذا المكسب لتونس فإن هدفها كان كبح جماح المقاومة الراديكالية التي اشتدت وكانت تدعوا لوحدة الكفاح بالمغرب العربي([12]).

لقد أعلن الحزب الدستوري الحر موافقته على إجراء مفاوضات الاستقلال الذاتي وشارك في تشكيل الوزارة الوطنية التي أصرت فرنسا على أن يرأسها أحد المعتدلين، وكانت أولى مهامها نزع أسلحة الثوار وتسليمها للسلطات قبل الشروع في المفاوضات، ومثل هذا الموقف نقطة خلاف أولى بين الحبيب بورقيبة الذي قبل مبدأ التسليم ووضع ثقته في فرنسا وبين صالح بن يوسف الذي كان يرى أن تصفية حركة الكفاح المسلح قبل الاتفاق على مبدأ الاستقلال يضعف مركز المفاوض التونسي، واتضح ذلك جليا في الاتفاق الذي أمكن التوصل إليه في جوان 1955 بعد تليين عدة عقبات ومماطلات، والذي نص على منح تونس الاستقلال الداخلي وارتباطها الدائم بالأمة الفرنسية، حيث احتفظت فرنسا بشؤون

---

[10] **p 153 LACOUTURE (jean) : Cinq homme et la France , édition du seuil, paris , 1961,**

[11] العقاد صلاح : المرجع السابق ، ص 26

[12] انظر نايت بلقاسم مولود قاسم : دور فاتح نوفمبر في استرجاع ليبيا فزانها والمغرب وتونس استقلالهما، بل وافريقيا كلها حريتها: مجلة الثقافة ، وزارة الاعلام والثقافة، الجزائر، العدد 83، (سبتمبر . اكتوبر 1984) ص 68

الدفاع والخارجية ومنحت المستوطنين امتيازات واسعة([13])، ويبدوا أن السلطات الفرنسية استغلت اللين الذي أبداه بورقيبة وبدأت تفكر في كسبه خاصة بعد استفحال الثورة الجزائرية، فأسرعت للتوقيع على هذه الاتفاقية وشجعت جناح بورقيبة لتولي السلطة والوقوف في وجه الرافضين للاتفاقية من أنصار صالح بن يوسف الذين أعلنوا مواصلة الكفاح حتى يتم استقلال تونس التام وتحرير المغرب العربي، وساعدت بورقيبة في مواجهة معارضيه بإعلانها عن استقلال تونس التام في 20 مارس 1956([14]).

وهكذا أصبحت تونس دولة مستقلة وهو ما أعطى دعما سياسيا لبورقيبة باعتباره تتويجا لسياسة المراحل غير أن اتفاقية الاستقلال حددت استقلال تونس في أيطار التكامل مع فرنسا وا ٍبقاء قواعد عسكرية فرنسية بتونس وامتيازات أخرى، ودخلت تونس مرحلة جديدة في تنظيم شؤون الدولة، حيث شكل بورقيبة الوزارة، وتم في سنة 1959 إلغاء الملكية وا ٍعلان الجمهورية برئاسة لحبيب بورقيبة الذي احتفظ كذلك برئاسة الديوان السياسي للحزب الدستوري، وأصبح الحاكم المطلق لتونس([15]) .

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن مسيرة النضال الوطني التونسي كانت طويلة وشاقة، وذلك على الرغم من هامش الحركة الذي تفسحه الحماية، حيث نجح الحزب الدستوري الجديد في بناء حركة شعبية مطالبة بالاستقلال، واتبع زعيمه بورقيبة سياسة معتدلة وسلمية لتحرير بلاده، لم تكن محل رضا خصومه في الحزب، الذين تجندوا وراء خيارات صالح ابن يوسف التحرر ية.

---

[13] عن خلفيات الصراع بين بورقيبة وصالح بن يوسف انظر الطاهر عبدالله :الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة، ط2، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس, 1990، ص 113 وما بعدها

[14] المرجع نفسه ، ص 69

[15] العقاد صلاح : المرجع السابق ، ص 27 وما بعدها .